ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

الجهود العلمية لنور الدين محمود في مقاومة الوجود الشيعي ببلاد الشام (541–569هـ/1146–1173م)

The scientific efforts of Noureddine Mahmoud in resisting the Shiite presence in the Levant (541-569h / 1146-1173)

دة. تازي عائشة*

Dr.TAZI aicha

أستاذة محاضرة ب في التاريخ الوسيط- قسم التاريخ-

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف.

البريد الإلكتروني: a.tazi@univ-chlef.dz/tazi.aicha@yahoo.fr

Abstract: Noureddine Mahmoud (541-569/1146-1173), made a great scientific efforts to resist the Shiite presence in the Syria and all over the Middle east. As a result of his scientific formation we find, that he was able to help the grandfather in the jihad of Shiites at various levels and ways, especially in the scientific side. He sought to remove all the claws of the Fatimid state from the land of Islam. He was keen to build schools and mosques and attach them to a library in Damascus, Homs, Hama, Aleppo, Mosul and other different schools of thought, moreover he was closed the scholar sand give the highest position in houses and the greatest and intended from various parts, and this was in support of the intellectual movement in his state and strong sword against the Shiite presence in the Islamic East in 6th century Hijri, corresponding to the eleventh century AD.

The scientific role of Noureddine Mahmoud in the resistance of the Shiites, did not focused only in the scientific aspect but he encouraged the leaders and women to confront the internal thought by allowing them to establish educational institutions to do so had a role in that area, in the same ways he support and encouraged the Sufism Sunni and faced with the mysticism Shiite who tried to penetrate Students and older in the corners and ligaments, especially in the sham, in general we can consider that he was succeeded to a large extent and returned the Syria province to its original suni thought.

Key word: Noureddine Mahmoud, Shiite, Syria, scientific school, Scholars and Fuqaha.

مقدمة: إن الحديث عن شخصية القائد نور الدين محمود يجرنا للحديث عن الحروب الصليبية ودوره السياسي والعسكري في مواجهة تلك الحملات المغرضة ضد الأمة الاسلامية، لكن الدارس

* تاريخ استقبال المقال:2017/06/15تاريخ المراجعة:2017/09/28 تاريخ القبول:2017/10/04

الفعلي لإنجازات نور الدين يجدها لا تقتصر على جهود سياسية وعسكرية ضد القوى الصليبية، بل تعدته وبشكل واسع إلى جهود علمية كبيرة من أجل تخليص المجتمع من براثين الفرق الضالة، وإعادة الأمة إلى نهجها السليم: نهج أهل السنة والجماعة بعد أن خضعت لأكثر من قرن من الزمن للدولة العبيدية الشيعية– الدولة الفاطمية** –، التي عاثت فسادا في البلاد والعباد بنشر فكرها المنحرف في ظل ضعف الخلافة العباسية، والتي أضحت عاجزة أمام أي خطر محدق بالأمة الأسلامية من صليبيين وشيعة.

تبنى نور الدين محمود ذلك الدور؛ فضاعف جهوده لمواجهة الصليبيين دون أن يهمل الخطر الشيعي العبيدي، الذي تصدى له في مختلف المجالات السياسية والعسكرية وبخاصة العلمية والفكرية.

وكانت بلاد الشام المسرح الأساسي للجهود العلمية لنور الدين محمود؛ فقد بذل جهودا كبيرة في بناء المدارس والمنشآت العلمية كالمساجد والزوايا والأربطة للقضاء على الفرق الضالة وتطهير المجتمع الإسلامي، وقد دُعمت تلك المؤسسات بعلماء وفقهاء أكفاء تبنوا مشروعها الأول، ولما كانت هذه المنشآت بحاجة إلى موارد مالية ثابتة، تضمن لها الاستمرار في أداء رسالتها كان الوقف هو المصدر الأول لتمويلها، والذي اعتبر بمثابة الدخل الدائم الذي يُصرف على المعلمين والطلبة، وسنحاول من خلال هذه المقالة الإجابة على التساؤلات التالية: لماذا انتهج نور الدين محمود سياسة تعليمية واسعة النطاق مهدها بلاد الشام؟ وكيف أسهمت المؤسسات العلمية في حماية الأمة من الأخطار المحدقة بها خاصة الفكر الشيعي؟

أولا: التعريف بنور الدين محمود: هو نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي، ولد يوم الأحد 17 شوال 511هـ/1117م بحلب، نشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة[1]، و"كان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده فيه تعصب"[2].

احتكّ نور الدين بالعلماء والشيوخ وتشبع بالعلوم والمعارف، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية، يعقد المجالس العلمية ويوجه الأسئلة إلى الفقهاء مستفسرا عن المسائل الغامضة[3]، حتى بلغ مكانة في العلم سمحت له بتأليف كتاب في الجهاد[4]، كما حصل على إجازة لرواية الحديث، فقد حدَّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء الذين أجازوه، منهم أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري، كما روى عنه جماعة من الشيوخ مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي منصور

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي[5]، وكان له بذلك دور في الناحية العلمية بالتأليف ورواية الحديث إضافة إلى جهوده الأخرى في بناء المدارس والمساجد والزوايا.

تولى نور الدين أمور مملكة والده بحلب سنة 541هـ/1146م، وتمكن من تأسيس دولة اتسع نطاق سيادتها السياسية وتعددت الأقاليم التي سيطر عليها؛ فقد خضعت له مناطق في بلاد الشام والجزيرة ومصر، ففي الجزيرة والشام ضم مدن حلب ودمشق والموصل وحماة وحمص ومعرة النعمان وشيزر وكفر طاب ومنبج والرقة والباب وبزاغة وبانياس وحوران وغيرها، وتاخمتها غربا إمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين ومملكة بيت المقدس، وفي الشمال جاورتها سلطنة سلاجقة الروم، أما في الشرق فقد وجد النفوذ العباسي والسلجوقي، وامتدت إلى النوبة جنوبا وجبل نفوسة غربا.

حرص نور الدين محمود طيلة فترة حكمه على تشكيل جبهة إسلامية متحدة- مهدها بلاد الشام ثم مصر- لمواجهة الصليبيين من جهة والقضاء على النفوذ العبيدي الشيعي من جهة أخرى، الشيعة العبيديون الذين شكلوا خطرا فعليا على العالم الإسلامي بعد تحالفهم مع الصليبيين في مناسبات عديدة وتخاذلهم عن نصرة المسلمين من أهل السنة ضد هذا العدوان الغاشم[6].

توفي نور الدين محمود يوم الأربعاء 11 شوال 569هـ/1173م، ودفن بقلعة دمشق[7].

ثانيا: وقف نور الدين للمدارس و المساجد والزوايا وخزائن الكتب وأثره في مقاومة الوجود الشيعي: ازدهرت النهضة العلمية في بلاد الشام منذ العصور الإسلامية الأولى، فكانت أرضا للعلماء والفقهاء، لكنها ما لبثت بعد ذلك أن خيّم عليها ركود مؤقت في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، مرده التغلغل الباطني والسيطرة العبيدية على أجزاء كبيرة منه، أمام عجز الخلافة العباسية عن إعادة الأمور إلى نصابها، لكن لم يدم هذا الركود طويلا إذ ما لبث أن ظهرت قوى جديدة في القرن السادس الهجري أحدثت نهضة علمية شاملة على الرغم من الصراع الدامي مع الغرب الصليبي، تزعمتها أسرة آل زنكي الذين اهتموا بالعلم، وسارعوا في وقف الأوقاف وجلب العلماء وفتح المدارس حتى زاد عددها في تلك الفترة زيادة تُلفت النظر.

وعلى الرغم من التغلغل الشديد لفرق الشيعة في بلاد الشام آنذاك، فقد وازى ذلك النشاط نشاط مذهبي وعلمي سني واسع من قبل الزنكيين[8]، وهذا دليل على اهتمام الزنكيين عامة بالحياة العلمية التي سُخِّرت لها كل الجهود لضرب الفكر الشيعي الباطني، وليس من المستبعد أن يكون الزنكيون قد تأثروا بطرق تسيير النظاميات[9] في توفير سبل المعيشة لطلاب العلم من مختلف المناطق

حتى يستقطبوا أكبر عدد ممكن من العلماء والطلبة الذين سيتكفلون فيما بعد بنقل علومهم ومعارفهم إلى أقاليمهم الأصلية، وبذلك يكون التأثير أوسع وأشمل.

فما هي الأساليب العلمية والمذهبية التي انتهجها الزنكيون في مقاومة الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي؟

عمل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي على إقامة دولة على أصول أهل السنة، والقضاء على البدعة والفكر الشيعي المنتشر في العالم الإسلامي في تلك الفترة ، فقد قال عنه ابن كثير: "أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولة أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهرا"[10]، فقد عقد نور الدين العزم على تطهير البلاد من براثين الشيعة، واشتدت وطأته على هؤلاء المبتدعة بأن ألغى جميع ممارساتهم الدينية في الآذان وسبّ الصحابة، وأنكر ذلك إنكارا شديدا، وقد ساعده على ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة، ولم يكترث لبقايا طائفة الإسماعيلية والإمامية في حلب والشام الذين عظم عليهم الأمر لكنهم سكتوا وأحجموا عن ردة الفعل خوفا من قوة وهيبة نور الدين[11].

كما حرص نور الدين محمود على وقف الأوقاف على البيمارستانات والجوامع خدمة للفقراء والمساكين، وضرورة التعليم المجاني لجميع فئات المجتمع، ومن ذلك أنه أوقف على من يعلم الأيتام الخط والقرآن وجعل لهم نفقة وكسوة[12].

ونتيجة لذلك بلغت أوقافه من الكثرة ما جعل أبا شامة (ت665هـ/1266م) يقول: "ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد"[13].

وكان للسياسة العلمية التي انتهجها نور الدين محمود أن استقطبت عددا كبيرا من العلماء، حيث حرص طيلة فترة حكمه على تقريب العلماء والفقهاء والإنفاق عليهم، وقد أثار ذلك حفيظة بعض الحاسدين المفسدين، الذين أشاروا عليه بقطع أرزاق أولئك لما ازداد الضغط على بيت مال المسلمين، جراء ازدياد النفقات لتجهيز الجيوش لمواجهة الصليبيين، وقد غضب لذلك وقال: "والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ... وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم"[14].

وفي نفس السياق نجد أن نور الدين محمود اهتم اهتماما بالغا بالعلماء والمدرسين، فوفر لهم الرعاية والتشجيع، كما وفر لهم الدخل الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره، ومن شدة اهتمام نور الدين بالعلم أنه كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه، ويستقدمهم من أماكن بعيدة، ويفتح المدارس الكثيرة من أجلهم، وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد كدافع لبناء مدرسة يقوم بالتدريس فيها؛ فقد بنى مدرسة لشرف الدين بن أبي عصرون(ت585هـ/1189م) في دمشق، وفوّض إليه التدريس فيها، وسمح له أن يوليها من يشاء، وبنى لقطب الدين النيسابوري (578هـ/1182م) مدرسة لم يتمها، وكانت الغاية من بناء المدارس تكوين وتخريج أساتذة وموظفين متعمقين في المذهب السني، كي يتولوا وظائف في السلطة ويواجهوا الفكر الشيعي[15].

*__أهم المدارس زمن نور الدين محمود__: اتسعت الجهود العلمية لنور الدين محمود "حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمنه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية" حسب ابن قاضي شهبة[16]، فحرص على بناء المدارس والوقف عليها بدمشق وحمص وحماة وحلب وبعلبك ومنبج والرحبة والموصل وغيرها للحنفية والشافعية[17]، كما قرب العلماء وأهل الدين فكانوا عنده في أعلى المنازل وأعظمها وقصدوه من البلاد الشاسعة[18]، وكان ذلك تدعيما للحركة الفكرية في دولته وسيفا قويا ضاربا ضد المد الشيعي في المشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وتعتبر الشام عامة ودمشق خاصة المسرح الأول للجهود العلمية لنور الدين محمود في مقاومة الوجود الشيعي، وذلك لعدة اعتبارات أهمها موقعها الهام الذي يتوسط بؤر التوتر في العالم الإسلامي آنذاك: الصليبيون في الشمال والباطنية النزارية في الشرق، والدولة العبيدية الشيعية في الغرب، كل ذلك في ظل خلافة عباسية متقهقرة وآيله للزوال، وفرضت هذه الظروف على نور الدين محمود أن يزاوج جهوده السياسية والعسكرية بأخرى علمية ومذهبية تُمكنه من ترميم ما فسد جراء سيطرة هذه القوى على العالم الإسلامي، وكان بناء المدارس أبرز هذه الجهود العلمية.

وكان للمؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس ومكتبات ودور حديث التي أوقفها نور الدين محمود دور كبير في مقاومة الوجود الشيعي في بلاد الشام، وقد أوجز ذلك بقوله: "نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين"[19]، فالمعروف عن نور الدين زنكي أنه حارب الفرق الضالة والبدع، وكان يبالغ في ذلك ويقول: "نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل"[20].

جاءت مدارسه مجهزة بكل وسائل العلم والمعرفة، ولم يقتصر نشاطه العلمي في إقامة المدارس على مدينة بعينها أو مذهب بعينه، بل أقام المدارس في شتى بقاع الشام، وبخاصة في حلب وحماة ودمشق وغيرها، ولم يهمل الأقاليم الأخرى التي كانت تابعة له، فقد نالت هي الأخرى نفس الاهتمام العلمي[21]، فبلغت المدارس بدمشق في عهد نور الدين محمود اثنين وعشرين مدرسة[22]، في حين أنه كان في حلب- حيث بقي النفوذ الشيعي قويا- ثمانية مدارس[23]، وكما لم يهمل نور الدين مذهبا على حساب الآخر فقد أوقف عدة مدارس على الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، وأجرى الجرايات على أئمتها ومدرسيها وفقهائها[24].

ولم يقتصر دور المدارس على التعليم ونشر الوعي في صفوف الطلاب والعامة، وإنما كانت بمثابة معاهد يتخرج منها الفقهاء والقضاة والمعلمون والإداريون والقادة العسكريون، هؤلاء الذين تميزوا بالتزامهم العقائدي في جميع نشاطاتهم وممارساتهم، أوكل إليهم تسيير أمور الدولة بعد أن تشبعوا بالروح الإسلامية في المدارس الزنكية.

وقد تنوعت هذه المدارس، فكان منها معاهد لتدريس الحديث ومعاهد لتدريس الفقه ومدارس خاصة بالطب[25] وغير ذلك، وقد ركزنا في دراستنا على المؤسسات التعليمية التي تكفلت بمقاومة الفكر الشيعي.

1- دار الحديث النورية[26]: هي أول دار للحديث بنيت في الإسلام[27]، بناها السلطان نور الدين محمود بدمشق، ووقّف عليها وعلى من بها من العلماء والمحدثين وقوفا كثيرة[28]، وقد تخرج منها عدد كبير من المحدثين والمؤرخين، وتولى التدريس فيها طائفة من الشيوخ والمدرسين، لم تحظ بهم مدرسة من مدارس دمشق[29]، وقد تولى مشيختها في عهده الشيخ أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله" المعروف بـ"ابن عساكر (ت571هـ/1175م)"[30]، لما عرف عن هذا الأخير من علم وورع وزهد.
وكان ابن عساكر قبل تولي دار الحديث النورية قد درس وتفقه بالمدارس النظامية[31]، وهناك تأثر بالمدّ الحضاري للنظاميات زمن الزنكيين، وعليه فهناك قاسم مشترك بين الجهود العلمية السلجوقية والزنكية في إنشائهم للمدارس، والأكيد أيضا أن ابن عساكر تأثر بطرق التدريس وتسيير النظاميات، وحاول تطبيق الأمر في دمشق بعد توليه دار الحديث النورية.

2- المدرسة النورية الكبرى 563هـ/1167م: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي بدمشق بخط الخواصين سنة 563هـ/1167م[32]، ويقال إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل (ت577هـ/1181م)، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ودفنه بها، وهي بعض دار هشام بن عبد الملك بن

مروان(105-125هـ/723-742م)[33] والخبر الأول هو الأصح[34]، وتصنف هذه المدرسة مع المدارس الحنفية بدمشق[35] لأن نور الدين محمود كان عارفا بمذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، ويراعي مذهب الشافعي ومالك رضي الله تعالى عنهما[36].

كانت المدرسة النورية الكبرى مخصصة لدراسة العلوم الشرعية على مذهب الإمام أبي الحنيفة النعمان، وأوكلت مهمة التدريس فيها لنخبة ممتازة من علماء الحنفية، وأول من درس بها بهاء الدين بن العقادة، وكان شيخا فاضلا مشهورا، درّس بها إلى أن توفي سنة 596هـ/1199م، ثم خلفه برهان الدين مسعود الدمشقي، وكان شيخا عالما مشهورا فاضلا، إلى أن توفي سنة 599هـ/1202م[37].

وقد أوقف عليها وعلى الفقهاء بها حمّام المستجد بسوق القمح، والحمَّامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة، والدار المجاورة لهما، والوراقة بعونية الحمى وجسر الوزير، وثلاثة أرباع بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى وعشرين حانوتا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، وكتب الوقف رغبة في الآخرة والثواب، وتقدمة بين يديه يوم الحساب، قال الله تعالى: "فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم"[38]، وذلك آخر شعبان 567هـ/1171م[39].

وقد زار ابن جبير(ت614هـ/1217م) المدرسة النورية بعد افتتاحها بسنوات معدودة، فوصفها وصفا دقيقا يدل على روعتها ومكانتها، فقال: "ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين...، وبها قبره...، وهي قصر من القصور الأنيقة...؛ فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله"[40].

3– المدرسة النورية الصغرى: تنسب إلى نور الدين محمود بن زنكي، بناها بجامع قلعة دمشق للحنفية[41]. ولا يُعرف من درَّس بها من زمن نور الدين إلى زمن الملك الأشرف ابن العادل ابن أيوب (ت635هـ/1237م) سوى بهاء الدين عياك، وكان رجلا فاضلا، وخطيبا بالجامع[42].

والظاهر أن آثار هذه المدرسة قد اختفت لظروف ما، وهذا ما أكده الدكتور بدران الذي وقف على جميع المعالم العمرانية التي وصفها في كتابه، وقال عنها: "فلم أر لمكانها أثر، فإن كانت في جامع القلعة، فلعلها كانت حلقة أو هي مقام الصحابي الجليل أبي الدرداء، وإن كانت تجاه القلعة، فإما أن يعني بها[43] مدرسة دار الحديث النورية المتقدم ذكرها، وإما أن تكون أدخلت في الجامع المسمى الآن بسيدي خليل، لأن بناءه يدل على أنه مدرسة، وإما أن تكون أيدي الزمان تلاعبت بها كما تلاعبت بغيرها، فجعلتها دارا أو دكانا أو غير ذلك"[44]، وهي ظاهرة تعرضت لها عديد المدارس الدمشقية[45].

4- المدرسة العصرونية: أنشاها نور الدين محمود سنة 550هـ/1155م للإمام شرف الدين بن أبي عصرون (585هـ/1189م)[46] الذي كان من أعيان فقهاء عصره في المذهب الشافعي، وكان أول من درّس بها لذلك عرفت باسمه، وكانت هذه المدرسة في الأصل دارا لأبي الحسن علي بن أبي الثريا وزير بني مرداس[47].

وقد حظي ابن أبي عصرون بمكانة رفيعة عند نور الدين محمود حتى بنى له مدارس بكل من منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، وفوّض إليه أن يولي التدريس فيها لمن يشاء[48]، وقد أطلق عليها اسم المدارس العصرونية نسبة إليه، كما أضاف إليها شرف الدين نفسه مدرسة بحلب وأخرى بدمشق[49].

وقد لازم شرف الدين المدرسة العصرونية مدرسا وناظرا بأوقافها إلى أن خرج إلى دمشق سنة 570هـ/1174م[50]، فاستخلف فيها ولده نجم الدين، ولم يزل بها إلى أن ولي قضاء حماة، فاستناب فيها ابن أخيه عبد السلام؛ فدرّس بها إلى سنة 598هـ/1201م حيث تولى التدريس بعده قاضي القضاة نجم الدين أبو البركات ابن شرف الدين أبي عصرون[51].

5- المدرسة الحَلَاوِيَّة[52]: كانت هذه المدرسة في الأصل كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين، وحوّلها القاضي أبو الحسن بن الخشاب مسجدا عُرف بمسجد السراجين، ولما ملك نور الدين محمود حلب جعلها مدرسة للحنفية سنة 543هـ/1148م، وخصّص بها مساكن للفقهاء، كما خصص لها الأوقاف الكثيرة؛ فتوافد عليها الطلبة بكثرة؛ فعلا شأنها وذاع صيتها[53]، وأول من درّس بها الفقيه الإمام برهان الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد بن أبي جعفر البلخي(ت548هـ/ 1153م)[54]، استدعاه نور الدين من دمشق إلى حلب، كما استدعى الفقيه برهان الدين أبا العباس أحمد بن علي الأصولي(ت576هـ/1182م) من دمشق ليجعله نائبا عنه[55].

6- المدرسة النفرية النورية: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بحلب سنة 544هـ/1149م، وأوقفها على الشافعية[56]، وأول من تولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الطُرَيْثيثي(578هـ/1182م)[57] مُصنف كتاب الهادي في الفقه، وقد سبق له أن اشتغل بمرو وسمع الحديث من عدة شيوخ، كما أنه درّس بالمدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن ابن الجويني(ت478هـ/1085م)[58].

ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادفة؛ فقد عُرف عنه تبحره في علم الكلام، ومعنى هذا أن نور الدين كان يقصد من وراء هذا الاختيار تحقيق نفس الهدف الذي كان ينشده نظام الملك عندما قصر مدارسه على أئمة الشافعية وفقهائهم باعتبارهم الفئة التي كانت

مهيأة للدفاع عن عقيدة أهل السنة، بعد أن تسلح معظمهم بدراسة عقيدة الأشعري ونذروا أنفسهم للدفاع عنها، فكان نور الدين بحاجة إلى هذا الإمام وأمثاله في بيئة حلب التي يشكل الإمامية والإسماعيلية معظم سكانها، وكلا الفريقين كان مسلحا بالفلسفة للدفاع عن عقيدته[59].

وبعد وفاة قطب الدين النيسابوري تولى التدريس بها مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل (ت597هـ/1200م) الذي بقي ملازما لها إلى أن نقل إلى القدس الشريف[60].

كان هناك احتكاك واضح بين مدرِّسي النظاميات والعلماء الذين تولوا التدريس في المدارس النورية، وهذا دليل على محاولة نور الدين استكمال رسالة النظاميات التي كانت تسعى إلى دحض البدع والفرق الضالة، والقضاء على الفكر الشيعي من خلال التعليم.

7– المدرسة الكلاَّسة: عمَّرها نور الدين محمود سنة 555هـ/1159م، وسُمِّيت كذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع الأموي، احترقت في المحرم سنة 570هـ/1174م، وفي 19 ربيع الأول من هذه السنة ملك صلاح الدين الأيوبي دمشق، وأمر بتجديد عمارة الكلاَّسة سنة 575هـ/1179م على يد الحاجب أبي الفتح ابن العميد، وأول من صلى ودرس بها أبو جعفر القرطبي (ت598هـ/1201م)[61]، وكانت وقفا على الشافعية.

8- المدرسة الشعيبية: كانت في الأصل مسجدا عتيقا اختطَّه المسلمون أول ما فتحوا حلب ويعرف بالغضائري[62]، ولما ملك نور الدين محمود حلب وأنشأ المدارس وفد إلى حلب الشيخ الفقيه شعيب بن أبي الحسن بن الحسين بن أحمد الفقيه الأندلسي الشافعي، فصيّر له هذا المسجد مدرسة عُرفت به[63]، ولازم الشيخ شعيب التدريس بالمدرسة إلى أن توفي سنة 596هـ/1199م، ثم وليها بعده الشيخ شمس الدين محمد بن موسى الجزولي، وبقي بها إلى أن توفي سنة 633هـ/1236م[64].

9- المدرسة العماديَّة: ذكر عز الدين ابن شداد (ت684هـ/1285م) أنَّ بانيها هو الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، والواقف عليها صلاح الدين، وأول من درَّس بها عماد الدين الكاتب ثم ولده عز الدين، إلا أن النعيمي(ت978هـ/1570م) يقول: "إنما بناها نور الدين محمود ابن زنكي الشهيد رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الله الحارثي، وهو أول من درَّس بها"[65]، والثاني هو الأصح، فابن كثير(ت774هـ/1372م) يذكر أن نور الدين محمود هو من بناها فسمَّاها المدرسة النورية الشافعية، وسُمِّيت بالعمادية نسبة إلى عماد الدين الكاتب الذي قدم إلى دمشق في شعبان سنة 562هـ/1166م، ليس لأنه أول من درَّس بها ولكن لكثرة إقامته بها وتدريسه فيها[66]، فقد

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

ولاه نور الدين محمود التدريس بها في رجب سنة 567هـ/1171م[67]، وتقع هذه المدرسة داخل باب الفرج والفراديس قرب الدماغية من قِبَلِه، وقد تحولت إلى كُتَّاب للصبيان في زقاق الخندق[68].

11- مدارس حرَّان: ساد المذهب الحنبلي في المؤسسات التعليمية المنتشرة بحَّران، كما كانت هذه البلدة مقرا "للصالحين المتزهدين، ومثابا للسائحين المتبتلين...، أما عبَّادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم أكثر من أن يقيدهم الإحصاء...، ولهذه البلدة مدرسة وبيمارستان" حسب ابن جبير[69]، وتلك المدرسة هي التي أمر نور الدين محمود بإنشائها للشيخ حامد بن محمود الحراني (ت570هـ/1174م) "الذي كان ورعا وثقة"، وقد أخذ عنه العلم جماعة من أهل حران منهم فخر الدين بن تيمية الذي أنشأ مدرسة خاصة به لتدريس الفقه على المذهب الحنبلي[70].

إلى جانب كل هذه المدارس، ذكر ابن واصل (ت697هـ/1297م) أن لنور الدين محمود مدارس أخرى منها مدرستين بحماة ومدرستين بحمص، إحداهما للحنفية والأخرى للشافعية[71]، ولكنه اقتصر على ذلك دون التفصيل في ذكر تاريخ بنائها ولا من درس بها، كما نسب عز الدين ابن شداد (ت684هـ/1285م) زاويتين لنور الدين محمود بجامع حلب الأولى للمالكية والثانية للحنابلة دون ذكر تاريخ إنشائهما[72].

*__وقف خزائن الكتب__: اتسعت الجهود العلمية لنور الدين محمود فشملت وقف خزائن الكتب، والتي حظيت في العهد الزنكي بنفس الاهتمام الذي لاقته المدارس؛ فلا نكاد نجد مدرسة في بلاد الشام تخلو من خزانة للكتب، تحوى عناوين عديدة ومؤلفات مشهورة تضرب في مجملها الفكر الشيعي الباطني، وكان لكل مكتبة عدد من الموظفين منهم الخازن والنساخ والمجلدين والمناولين، كما كان لكل مدرسة خزانة كتب خاصة بها، وليس من الضروري أن يكون الوقف المخصص لخزانة الكتب موقوفا من قبل واقف المدرسة بعينه، فقد يكون ذلك من أشخاص غير الذين بنوها، وإذا كان لها وقف سابق توسع وقفها، وإذا لم يكن لها يصبح لها أوقاف تساعد على بقاء نشاطها التعليمي واستمراره[73].

ومن خلال ما سبق نجد أن الإنفاق على المدارس وخزائن الكتب في عهد نور الدين محمود لم يكن على حساب خزينة الدولة فقط بل تعمد السلطان أن ينفق من ماله الخاص ويُشرك كذلك جميع أهل الخير والصلاح من خلال تشجيع نظام الوقف حتى لا يزول المشروع بزوال الأفراد.

كما لم تقتصر مدارسه على مذهب واحد وإنما اعتنت بكافة المذاهب وبخاصة الحنفي والشافعي؛ فالحنفي لأن نور الدين كان حنفيا دون تعصب أو انحياز، والشافعي لأنه اعتمد على خريجي المدارس النظامية في الكثير من المهمات، وكان جلّ المدرسين بالمدارس الشافعية زمن الزنكيين

على المذهب الشافعي ومن خرّيجي المدارس النظامية، والراجح أن نور الدين قد تأثر بمنهج النظاميات في مقاومة الوجود الشيعي، وحاول أن يُوظف المتخرجين منها في هذا المجال.

ثالثا– بناء نور الدين للمساجد الجامعة والزوايا ودورها في مقاومة الفكر الشيعي: لم يقتصر التعليم في هذا العصر على المدارس فقط بل كان يتم تعليم العلوم الدينية والعربية غالبا، والعقلية نادرا أيضا في المساجد، وتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار المناهج[74].

وقد اهتم السلاطين والأمراء الزنكيين بإنشاء المساجد الجامعة وتهيئتها بصفتها مؤسسة تعليمية ذات أهمية كبيرة في المجتمع، ولما لها من دور في توعية الناس من أخطار الفكر الشيعي المنتشر في ربوع العالم الإسلامي، وذلك باعتبار المسجد مكان عبادة وتعلم وتعليم وتوجيه وإرشاد وملتقى الناس ومقر ندواتهم، وحرص الزنكيون على تهيئتها وإصلاحها حتى تؤدي مهمتها على أكمل وجه، فاهتموا بإنارتها وفرشها، كما حرصوا على أن يُدَرس بها أكبر العلماء والفقهاء، ولذلك اكتظت بالطلبة في الفنون العلمية المتعددة، وأصبح تشييد المساجد سنة حميدة يتنافس فيها الأمراء والقادة على إنشاء هذه المؤسسات التعليمية في بلاد الشام وما حولها، حتى بلغت في حلب وحدها ما يربو عن مائتين وأربعة مساجد حسب ابن شداد[75].

ولم يقتصر التعليم على المدارس وإنما حافظ المسجد الجامع على وظيفته الأولى التي جمعت بين العبادة والتعليم، فقد أولى نور الدين محمود عناية بالغة ببناء المساجد وتعميرها وترميم ما هُجر أو خُرب منها، كما أوقف عليها الأوقاف الجليلة[76]، إذ يقول عنه ابن الأثير: "وبنى الجوامع في جميع البلاد"[77]، وهذا حرصا منه على إبقائها منبرا من منابر العلم في الدولة الإسلامية، فقد كانت المساجد مراكز تعليمية ركزت على بث الروح الإسلامية من جديد، وركزت على تخفيف التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثارا عميقة في عقائد الناس وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية[78]، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

المسجد الذي أنشأه نور الدين محمود في درب مدرسة بني عصرون بحلب[79]، وكان جامع الموصل من بين الجوامع التي أشرف أيضا على بنائها وأنفق عليه ستين ألف دينار[80]، وقد كان في غاية الحسن والإتقان[81]، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوض أمر عمارته والخراج عليه إلى الشيخ عمر الملا، وهو رجل من الصالحين[82]، ولما فرغ من بنائه أوقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه خطيبا ومؤذنين[83]، وعين الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي مدرسا في ذلك الجامع[84].

وبنى أيضا بمدينة حماة جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها[85]، وإن دلّ هذا على شيء فهو يدل على حرص نور الدين الشديد على نشر الدين الإسلامي بصبغته السنية في كامل بلاد الشام بعد أن عانت من الممارسات الشيعية لفترة طويلة.

كما رمّم نور الدين مسجد حلب[86] الذي أحرقته الإسماعيلية في 27 شوال 564هـ/1168م[87]، وأحرقت الأسواق التي كانت حوله، والظاهر أنها كانت موقوفة عليه؛ واجتهد في إعادة عمارته، كما أنه سعى إلى توسيعه على حساب السوق المجاورة له والتي كانت موقوفة عليه، واستفتى الفقهاء في الأمر فجوزوا له ذلك، فحسن البناء واتسع، كما أوقف عليه أوقاف جديدة كثيرة[88].

ولم يقتصر بناء المساجد على نور الدين محمود؛ فقد تعداه إلى بعض قادته إلى جانب العلماء وأهل البر، وهو الأمر الذي ينطبق على المدارس كذلك؛ فقد أنشا أسد الدين شيركوه بن شادي جامعا بالحاضر السليماني بظاهر حلب[89].

ومن مناقب نور الدين محمود في المجال العلمي أيضا أنه أوقف الأوقاف الجليلة على زاويتين: الأولى زاوية بجامع حلب لتدريس المذهب المالكي، والأخرى لتدريس المذهب الحنبلي[90].

رابعا– دور القادة والنساء زمن نور الدين محمود في مقاومة الفكر الشيعي:

أ– جهود القادة في مقاومة الفكر الشيعي: إن مشروع مقاومة الوجود الشيعي هو مشروع دولة، ولذلك تولى سلاطين الدولة بناء المدارس لهذا الغرض، كما أن هذه الجهود لم تقتصر عليهم فحسب بل تعدته إلى الأمراء والقادة العسكريين كذلك.

ومن ذلك جهود أسد الدين شيركوه (ت564هـ/1168م) في إنشاء المدارس والسهر على تمويلها، فقد أنشأ المدرسة الأسدية بدمشق، وأوقفها على الشافعية والحنفية[91]، وأول من درس بها قطب الدين مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري[92].

ولشيركوه بدمشق مدرستين: المدرسة الأسدية البرانية والجوانية، وقد أوقف عليهما قريتي برزة وضمير، وكان من أبرز المدرسين بها في زمن عزها العزّ القرشي أبو الخطاب والركن البجلي وصلاح الدين العلائي وشرف الدين الأذرعي وغيرهم، ولكن المصادر لم تحدد تاريخ إنشاء هاتين المدرستين[93]. بالإضافة إلى أمين الدولة كمشتكين (ت541هـ/1146م)، أتابك العساكر بدمشق ونائب قلعة صرخد وقلعة بصرى، الذي وقف المدرسة الأمينية[94]، وقيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية[95].

وقد بنى الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكردي[96]– أحد مقدمي الجيش النوري بالشام– المدرسة المجاهدية الجوانية، وتقع قبالة باب دار سيف الغربي، وأول من درَّس بها قاضي القضاة منتخب الدين أبو المعالي محمد ابن قاضي القضاة أبي الفضل يحيى بن علي بن عبد العزيز القرشي[97]، كما أنشأ مدرسة ثانية وهي المدرسة المجاهدية البرانية للشافعية، وهي جنب باب الفراديس المجدد، وممن تأكد أنهم تولوا التدريس بها شمس الدين عبد الكافي، ومن بعده تاج الدين أبو بكر الشحروري[98].

لم يكن بناء المدارس للفقهاء الشافعية فقط بل تنوعت المدارس كل حسب مذهبه؛ فقد أنشأ الأمير التاشي الدقاقي مدرسة للحنفية بدمشق سنة 550هـ/1155م، وكانت جامعا قبل ذلك يعرف بمسجد التاشي، ثم عُرفت بعد ذلك بالمدرسة التاشية، وأول من درس بها القاضي عز الدين أبو عبد الله محمد الحنفي[99]، والمدرسة الطومانية نسبة إلى طومان النوري[100]، بناها للحنفية بحلب، وهناك مدرسة أخرى بدمشق خارج باب توما للحنفية تسمي المدرسة الزنجارية، أنشأها نائب عدن عز الدين عثمان بن الزنجيلي، وأول من درَّس بها حميد الدين السمرقندي، وهي من أحسن المدارس حسب النعيمي[101].

بالإضافة إلى المدرسة المعِينيَة بحصن الثقيفين بدمشق، التي أنشأها معين الدين أنر، وهي مدرسة للحنفية أنشئت سنة 555هـ/1155م[102].

ب– دور المرأة في الحياة العلمية وجهودها في مقاوم الفكر الشيعي: لم تستقطب السياسية التعليمية النورية الرامية إلى مقاومة الفكر الشيعي الفقهاء من الرجال فقط، بل تعدته إلى النساء العالمات الفقيهات اللائي نلن حظهن من التقدير والإكرام، وقد وصلت المرأة إلى أسمى درجات العلم والفقه، فكان منهن الفقيهة فاطمة (ت581هـ/1185م) بنت الفقيه محمد بن أحمد السمرقندي (ت538هـ/1144م)، والتي زوجها والدها من تلميذه علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني(ت587هـ/1190م)[103]، وكانت على قدر كبير من العلم والتقوى والصلاح، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه "التحفة"، وكانت تنقل الفتوى نقلا جيدا، وتمارس الإفتاء، وهي التي أوقفت المال لتقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب، واستمر ذلك بعد وفاتها[104].

وقد كانت المرأة عنصرا فعالا في الدولة الزنكية وبخاصة في الجانب العلمي؛ فقد سمعت الحديث وحفظت القرآن الكريم[105]، واجتهدت في بناء المدارس ودور التعليم، والراجح أنها حاولت من خلال

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

ذلك المساهمة في مقاومة الفكر الشيعي الباطني في زمن اشتد فيه خطر هؤلاء على المجتمع الإسلامي وكأمثلة على ذلك نجد:

أ- المدرسة الخاتونية البرانية: تقع في قرية صنعاء الشام بمكان يقال له تل الثعالب بدمشق، وهذه المدرسة نسبة إلى الست خاتون[106] أم شمس الملوك أخت الملك دقاق بن تتش لأمه وابنة الأمير جاولي، أوقفتها على الشيخ برهان الدين على بن محمد البلخي الحنفي(548هـ/1151م)[107].

ب- المدرسة الخاتونية الجوانية: أنشأتها خاتون بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين[108] بمحلة حجر الذهب بدمشق، وأوقفتها للحنفية[109]، كما أنشأت دارا للحديث في الخانقاه بباطن حلب[110].

وفي الأخير يمكننا القول أن الغاية من جرد هذه المدارس ليس عدد المنشآت العلمية بل الوقوف عند جهودها في مقاومة الوجود الشيعي؛ فالمعلوم عن نور الدين تحمسه للعلم وتشجيعه للعلماء ووقفه الأموال الجليلة لتحقيق مشروعه الرامي إلى القضاء على مخلفات الفكر الباطني في بلاد الشام، وقد نجحت هذه المدارس إلى حد كبير في تقليص النشاط العلمي للشيعة وبخاصة في دمشق وحلب من خلال التدريس وتكوين طلبة يمكن الاعتماد عليهم في المهام الحساسة في الدولة كالتعليم والخطابة والوعظ التي من شأنها القضاء على الفكر الباطني.

خامسا- تشجيع نور الدين محمود التصوف السني ضد الفكر الشيعي الباطني: عملت الدولة النورية في أعقاب توسعها في بلاد الشام ومصر على دعم التصوف السني المذهب، وذلك تنفيذا لسياستها الدينية الرامية إلى ترسيخ مذهب أهل السنة والجماعة، إلى جانب الرغبة في تحقيق هدف سياسي تمثل في محاربة الدولة العبيدية بتدعيم التصوف السني[111].

اهتم نور الدين بالصوفية وقربهم لمجالسه، وبنى لهم الربط والخانقات في مختلف الأقاليم، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، وخصص لهم الرواتب والمنح، وكان مجلسه عامرا بمشايخهم الذين قربهم وتواضع لهم[112].

عمل العبيديون على تدعيم التصوف الشيعي، وقد ساعدهم على ذلك الصلة الوثيقة بين التصوف والتشيع[113]، فهناك أمور مشتركة بين كلتا الطائفتين، تتمثل في التركيز على حب آل البيت على وجه فيه غلو وانحراف، والاهتمام بالمقامات والأضرحة المنسوبة لآل البيت، وادعاء الكثيرين أنهم من نسل النبي صلى الله عليه وسلم[114]، وهذا لا يعني أن كل صوفي هو شيعي، وإنما الشيعة بتقيتهم وبتأويلهم الباطن استقطبوا بعض مريدي الطرق الصوفية من خلال التمويه في القواسم المشتركة بينهم.

وقد ظهر زمن الدولة الزنكية ثُلة من العلماء تكفلوا بإصلاح التصوف ومفهوم الزهد، وذلك بعد إطلاعهم على الانحرافات التي وقع فيها المريدون، ويأتي عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1165م)[115] في صدارة أولئك العلماء حيث أن التصوف في السابق كان يقوم على أساس فردي لا أثر للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي تزامن نشاطه والدولة النورية، فجاءت جهودهما مشتركة ومكملة لبعضها البعض، وكان من جوانب الإصلاح التي أحدثها عبد القادر الجيلاني على التصوف أن حارب المبتدعة في الدين والفرق الضالة، وتصدى للتطرف الشيعي الرافضي والتيارات الفكرية المنحرفة[116].

كما عمل عبد القادر الجيلاني على تنقية التصوف مما طرأ عليه من الانحرافات في الفكر والممارسة، ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية، هدفها الأساسي غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح، ويمثل كتاباه: "الغنية لطالبي طريق الحق" و"فتح الغيب" خلاصة أفكاره في هذا المجال[117]، وقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى "كتاب السلوك"، وقدمه نموذجا للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة[118].

من خلال ما سبق نلاحظ الجهود المتواصلة التي بذلها أمراء الدولة الزنكية في إحياء المذهب السني والقضاء على الوجود الشيعي من خلال المؤسسات التعليمية التي اجتهدوا في بنائها وتشييدها والوقف عليها، وجلب أكبر عدد ممكن من العلماء والفقهاء إليها لتلقين العلوم والمعارف الصحيحة.

الخاتمة: سعى نور الدين محمود إلى إزالة جميع براثين الدولة الشيعية من بلاد الإسلام، خاصة بعد أن اتسع مداها من مصر إلى بلاد فارس باسم الحشاشين– هم في الأصل جزء لا يتجزأ من الدولة العبيدية الاسماعيلية–، فبعد أن تمكن من القضاء على كيانها السياسي بحملاته المتكررة، أخذ يمحو آثارها الباطنية التي خلفتها في مصر والشام خاصة.

ولم تقتصر مهمة نور الدين على الجانب السياسي والعسكري فقط وإنما تعدته إلى الجانب العلمي؛ فحرص على بناء المؤسسات العلمية ووقف الأوقاف عليها بدمشق وحمص وحماة وحلب والموصل وغيرها للشافعية والحنفية، كما قرب علماء السنة وأهل الدين فكانوا عنده في أعلى المنازل وأعظمها، وقصدوه من مختلف الأنحاء، ولذلك كان دور الفقهاء والعلماء محوريا في هذه المرحلة، وسارت هذه القوى وفق توجيهات ودعم أولئك الفقهاء الذين شحنوا القادة السياسيين بحماس ديني، وكان ذلك تدعيما للحركة الفكرية في دولة نور الدين وسيفا قويا ضاربا ضد الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي)؛ فقد حررت تلك الجهود

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

العلمية المجتمع من العقائد الباطنية والأفكار المنحرفة الضالة، وقضت على الشيعة واستأصلت شأفتهم من أرض الشام ومصر، وتمكنت من نشر المذهب السني واعتماده مذهبا رسميا في جميع المناطق الخاضعة لها.

أدرك نور الدين محمود أن توفير المناخ العلمي العقائدي والفكري من شأنه إيجاد كيان داخلي متماسك لمواجهة الفكر الشيعي الباطني، وشكلت جهوده العلمية الواسعة شبكة من التعليم والمعرفة يصعب اختراقها، فانتشرت المدارس من الشام إلى مصر، واستقطبت إليها عددا كبير من العلماء والطلبة، وبذلك تكتلت الجهود لمواجهة أي خطر داهم سياسيا كان أم فكريا.

ومما لاشك فيه أن إزالة الغموض عن الجهود العلمية والمذهبية المبذولة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) من قِبل الزنكيين عامة ونور الدين خاصة، وشرح تفاصيلها سوف يُبين للمسلمين في الوقت الحاضر بعض معالم الطريق لتأصيل التعليم الإسلامي وضرورة العناية بالناحية العلمية، وبخاصة من خلال تفعيل نظام الأوقاف لتمويل وتسيير المؤسسات التعليمية، للنهوض بالحركة التعليمية وتحقيق ازدهارها، لما لها من دور في توجيه الأفكار والمجهودات لحل المشكلات الإسلامية المعاصرة، ومجابهة التحديات التي تواجهها وتتربص بها، لأن الجهل والأمية هما أكبر خطر يهدد المجتمعات الإسلامية حيث يصبح من السهل توجيه الرأي العام إلى ما لا يخدم مصالح الأمم، ويؤكد ذلك مقولة شهيرة لابن رشد جاء فيها: "إذا أردت أن تتحكم في جاهل فعليك أن تغلف كل باطل بغلاف ديني"، وهذا ما استغلته الفرق الشيعية الضالة بأن استهدفت الطبقة العامة الجاهلة بأمور دينها، وضمتها إلى صفوفها وحشدتها ضد الإسلام والمسلمين بدعايات مغرضة، فلو كان هؤلاء العامة على درجة بسيطة من العلم لما نجحت مخططات الفرق الضالة.

الهوامش:

*– هذا بالنسبة للكيان السياسي للشيعة بمصر وبلاد الشام الذي أطلقت عليه الدراسات الحديثة اسم الخلافة الفاطمية، أما في ثنايا بحثنا فسميناها الدولة العبيدية لأنه لم يصح عندنا لا نسبها ولا ادعائها بأحقيتها في الخلافة أولا، ثم إن لقب العبيديين محل اتفاق بين السنة والشيعة فيما يبقى لقب الفاطميين محل اختلاف.

1– ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971، ص15/أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997،ج2 ص313.

2– أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة، دت، ج3 ص72.

3– ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص17–18/ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد محمد تامر وآخرون، دار البيان العربي، القاهرة، 2006، ج6 ص660.

4- محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2000، ص277.--- 5- أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص57.

6- يذكر ابن الأثير: "أن من أسباب هجوم الصليبيين على المشرق الإسلامي مراسلة العبيديين للصليبيين وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة"، لأن هؤلاء تغلبوا على العبيديين وافتكوا منهم البلاد الشامية، زيادة على الخلافات المذهبية بين أهل السنة والشيعة، والتي كانت على أشدها في تلك الفترة، وكان العبيديون يُعلقون آمالا كبيرة على مهاجمة الصليبيين للقوات السلجوقية، فإذا استطاعوا زحزحة السلاجقة عن مركزهم وأضعفوا من شأنهم فإن هذا يُمَكِّن العبيديين من إرجاع الأراضي التي اغتصبها منهم السلاجقة منذ زمن ليس ببعيد، ويؤكد ويليم الصوري ذلك بقوله: "وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة إلى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت فرحته بالغة حين جاءته الأخبار بضياع نيقية من يد قلج أرسلان، وبهزيمة جيشه فيها، وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية، وعدَّ كل خسارة تُصيب الأتراك مكسبا له، ورأى أن المصائب التي تُلم بهم تعمل على استقرار أمته وأمن رعاياه". انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ج9، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص14/محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في الشرق والغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982م، ص35/محمد كرد علي، المرجع السابق، ج1 ص248/ويليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ج1 ص304.

7- انظر ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص81/أبو شامة، المصدر السابق،ج2 ص107/محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص25.

8- نجد ابن جبير الذي زار بلاد الشام سنة 580هـ/1184م يشكو من كثرة الفرق الشيعية، ولكنه في المقابل يشيد بنهضتها العلمية وسُرَّ لكثرة المدارس والمساجد فيها، فلم يمر بمدينة شامية إلا وجد بها المدارس والمساجد ودور الحديث العامرة بالعلماء والطلبة، وقد أشاد بفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة، ونصح أبناء المغرب بالتغرّب في طلب العلم، والدخول إلى بلاد الشام للنهل من علومها ومعارفها، انظر ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص258.

9- بدأ التفكير الفعلي في إنشاء المدارس النظامية لمقاومة الوجود الشيعي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة، فقد استوزر هذا السلطان رجلا قديرا وسنيا متحمسا هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك(ت485هـ/1092م)، الذي رأى أن الاقتصار على مقاومة الشيعة سياسيا لن يُكتب له النجاح إلا إذا وازى المقاومة السياسية بمقاومة فكرية، فأنشأ سلسلة من المدارس عرفت بالنظاميات، وأوقف على المعلمين والطلبة الأموال الجليلة حتى أضحت من أكبر المدارس في ذلك العصر، وقد حرص على بنائها في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حيث بنى أول مدرسة ببغداد سنة 459هـ/1066م، ومدارس ببلخ ونيسابور وهراة وأصبهان والبصرة ومرو وآمل طبرستان والموصل، ويقال إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وله بيمارستان ورباط ببغداد. انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرق سوسي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م، ج19 ص94/السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، دت، ج4 ص313-314.

10- ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص660.---- 11- ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص130.

12- أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص45/ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دت، ص170-171/ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص660.---- 13- أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص52.

14- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج9 ص463/ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي(ت660هـ/1262م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997، ج2 ص314.

15- أمينة البيطار وسهيل زكار، تاريخ الدولة العربية بالمشرق، من السلاجقة حتى سقوط بغداد ،ط3، مطبعة جامعة، دمشق، 1999، ص276.---- 16- ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص35.

17- أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص45/ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1969، ج5 ص185.---- 18- ابن الأثير، الباهر، ص171.---- 19- أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص61.

20- نفسه، ج1 ص49.--- 21- ابن الأثير، الباهر، ص170.--- 22- عندما دخل نور الدين دمشق اكتشف وجود إحدى عشر مؤسسة دينية، كانت كلها من أوقاف خاصة، أي نتائج تصرفات دينية ولم تكن سياسة دولة. انظر عبد الرحمن عزام، صلاح الدين الأيوبي وإعادة إحياء المذهب السني، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط2، دار بلومزبري، قطر، 2013، ص58.

23- نفسه، ص58.--- 24- أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص71.--- 25- على أن الطب في تلك المرحلة لم تخصص له مدارس وإنما ألحق بالبيمارستانات قاعات خاصة بإلقاء المحاضرات والظاهر أن سبب ذلك حتى يكون الطلبة بالقرب من المرضى حتى يتسنى لهم تطبيق الجانب النظري.

26- من المؤسسات التعليمية التي عرفت عند المسلمين ب"دور الحديث"، وإن لفظ دار الذي أطلق على بعض هذه المؤسسات لا يختلف في قاموس الاستعمال اللغوي عن المدرسة، فهي المدارس المختصة بدراسة علم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلم الحديث ليس مقصورا على رواية الأحاديث فحسب، بل لهذا العلم اتصال وثيق بالثقافة العامة له قواعد قيمة لها قيمتها العلمية في أصول البحث والدراسة، وكان نور الدين محمود أول من انشأ دارا للحديث بدمشق، وأوقف عليها الأوقاف، وتكاثرت دور الحديث بعده كمدارس أحادية، أو دور الحديث والقرآن كمدارس ثنائية. قمبر محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، دار الثقافة، قطر، 1985، ص27.

27- النعيمي عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ج1 ص74.

28- ابن الأثير، الباهر، ص172/أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص47.--- 29- صالح محمد حمدان الغامدي، المدارس النورية وأثرها في إشاعة المذهب السني في بلاد الشام، مذكرة ماجستير في التربية الإسلامية المقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1416هـ، ص78.

30- هو العلامة الحافظ الكبير المجوّد، محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر، ولد سنة 499هـ/1105م، سمع الكثير من الأحاديث، "وعدة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ومن النساء بضع وثمانون امرأة"، رحل إلى عدة بلدان وأقاليم للاستماع ورواية الحديث والاستزادة في العلوم، ولازم الدرس والتفقه بنظامية بغداد، وكان شيخا جليلا خيرا متعبدا، اعتنى بعلم الحديث سماعا وجمعا وتصنيفا، جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد فله العديد من المؤلفات أشهرها تاريخ دمشق في ثمانين مجلدا أو أكثر، وتوفي الاثنين 11 رجب سنة 571هـ/1175م، وصلى عليه القطب النيسابوري، وحضره جنازته السلطان صلاح الدين، ودفن عند أبيه بمقبرة باب الصغير انظر السبكي، المصدر السابق، ج7 ص215-223/ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ج18 ص224/ابن خلكان، المصدر السابق، ج3 ص310/ابن الأثير، الكامل، ج10 ص79/الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20 ص554-570/ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص674-675/النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص74.

31- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20 ص558.--- 32- ابن الأثير، الكامل، ج10 ص56/ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص229/ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم (ت659هـ/1260م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953، ج1 ص282.--- 33- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص466.

34- أورد لنا أحمد شلبي الذي زار المدرسة في سبتمبر 1950، نص الوقفية التي كتبت في العتبة العليا للمدرسة، وكان مستهلها: "أمر بإنشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه...". انظر شلبي أحمد، تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، 1954، صص108-114.

35- عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، 1959م، ص212.--- 36- ابن الأثير، الكامل، ج10 ص56.--- 37- النعيمي، المصدر السابق، ج2 ص475/أحمد شلبي، المرجع السابق، ص113.

38- سورة البقرة، الآية181.--- 39- أي في أجل أقصاه هذا التاريخ. عبد القادر بدران، المرجع السابق، ص213.

40- ابن جبير، المصدر السابق، ص256.--- 41- محمد كرد علي وكرد علي محمد، خطط الشام، ط3، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1983، ج6 ص95.--- 42- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص499.

43- يقصد العلموي الذي نقل عنه وكان قد عاين مكان هذه المدرسة.--- 44- عبد القادر بدران، المرجع السابق، ص222.

45- نفسه، ص58.--- 46- هو الإمام شرف الدين أبا سعد عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون بن التميمي، الموصلي ثم الدمشقي، الشافعي المذهب، ولد في ربيع الأول 492هـ/1098م، تفقه أولا على يد القاضي المرتضي أبي محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري، وعلى أبي عبد الله الحسين بن خميس الموصلي، ثم على أسعد المهيمني ببغداد، شغل منصب التدريس بالموصل وسنجار وحلب ثم انتقل إلى دمشق سنة 549هـ/1154م لما فتحها نور الدين محمود ودرس بالغزالية، وولي نظر الأوقاف ثم ارتحل إلى حلب ثم ولي قضاء سنجار وحران وديار ربيعة، وعظم شأنه لدى نور الدين، ثم عاد إلى دمشق سنة 570هـ/1174م وولاه صلاح الدين الأيوبي قضائها سنة 573هـ/1177م. ثم عمي في آخر عمره قبل موته بعشر سنين، وابنه محي الدين محمد ينوب عنه وهو باق على القضاء، وصنف جزءا لطيفا في جواز قضاء الأعمى على خلاف المذهب الشافعي. توفي بدمشق في 11 رمضان 585هـ/1189م. له عدة مؤلفات منها صفوة المذهب من نهاية المطلب، كتاب الانتصار، كتاب المرشد، الذريعة في معرفة الشريعة، وكتاب الإرشاد المغرب في نصرة المذهب... انظر السبكي، المصدر السابق، ج7 ص 132-133/ابن خلكان، المصدر السابق، ج3 ص53-54/أبو شامة، المصدر السابق، ج4 ص108-109. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص294/الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21 ص125-127/الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، 1923، ج1 ص141.

47- عز الدين ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحي زكريا عبادة، ج1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991، ص244/الطباخ الحلبي محمد راغب بن محمود بن هاشم، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط1، المطبعة العلمية، حلب، 1925، ج4 ص266.--- 48- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد محمد تامر وآخرين، دار البيان العربي، القاهرة، 2006، ج7 ص42.--- 49- الغامدي صالح محمد حمدان، المدارس النورية وأثرها في إشاعة المذهب السني في بلاد الشام، مذكرة ماجستير في التربية الإسلامية المقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1416هـ/1995م، ص82.

50- ابن كثير، المصدر السابق، ج7 ص42/أبو الفضل محمد ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سوريا، 1984، ص111.--- 51- عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص246.

52- قيل في سبب تسميتها بالحلاويّة قولان الأول: أن نور الدين محمود كان يحشو القطايف للفقهاء ويملأ جرنا بالحلوى والقطايف فيجتمع الفقهاء عليها ويأكلونها، وذلك في مناسبتين كل سنة: الأولى في السابع والعشرين من رمضان والثانية ليلة النصف من شعبان من كل سنة، والقول الثاني إنما سميت كذلك لحلاويين كانوا بجوارها. انظر ابن الطباخ الحلبي، المصدر السابق، ج2 ص63/عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص264-265.--- 53- ابن الشحنة، المصدر السابق، ص115.

54- برهان الدين علي بن محمد البلخي (ت546هـ/1151م) شيخ الحنفية بدمشق، تفقه ببخارى على الإمام عبد العزيز بن عمر بن مازة وعدة شيوخ حتى برع في الفقه، وسمع الحديث في ما وراء النهر، درّس في مدارس بحلب بالحلاويّة، وبالطرخانية، وبمسجد خاتون وبالصادرية والأمينية، وهو أول من درس بها. برهان الدين أحد من نشر العلم ببلاد الإسلام، كان عالما عاملا ورعا زاهدا، وهو أول إمام ألغى الأذان بحي على خير العمل من حلب. أنظر محي الدين بن أبو الوفا القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ج2 ط2، هجر للطباعة والنشر، مصر ، 1993، ص560/ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص615/أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص292-293/ابن القلانسي أبو يعلى حمزة ابن أسد بن علي بن محمد التميمي، ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة، دت 323/الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20 ص276.

55- عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص265-266/ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص293.--- 56- ابن الشحنة، المصدر السابق، ص111.--- 57- هو العلامة قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، تفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، قدم دمشق ودرس بالغزالية والمجاهدية، ودرس بحلب في المدرسة النورية ومدرسة أسد الدين ثم بهمذان، ثم رجع إلى دمشق ودرس بالغزالية، وانتهت إليه رياسة المذهب الشافعي، توفي بدمشق يوم عيد الفطر سنة 578هـ/1182م. انظر ابن كثير، المصدر السابق، ج7 ص21/ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص294/ابن طباخ الحلبي، المصدر السابق، ج4 ص255.

58- ابن شداد، المصدر السابق، ص248.--- 59- عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، ط2، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1988، ص209.--- 60- ابن شداد، المصدر السابق، ص249.

عصور الجديدة- المجلد7- العدد 27 صيف- خريف (أكتوبر) 1439هـ/2017- 2018م
ردمد 1636–2170 ISSN 2600-6324 EISSN الإيداع القانوني: 2014– 1156 Depot Légal

61- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21 ص304-305/النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص340-341/محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6 ص86-87.--- 62- ابن طباخ الحلبي، المصدر السابق، ج2 ص67.--- 63- ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص294.

64- ابن شداد، المصدر السابق، ص257/ابن الشحنة، المصدر السابق، ص112.

65- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص308.--- 66- ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص636-637.

67- أبو شامة، المصدر السابق، ج2 ص17/البنداري أبو الفتح بن علي بن محمد، سنا البرق الشامي، مختصر البرق الشامي في سيرة السلطان صلاح الدين للعماد الأصفهاني-، تحقيق رمضان ششن، مركز الأبحاث التاريخية والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، 2004، ص53.--- 68- محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6 ص85.--- 69- ابن جبير، المصدر السابق، ص220-221.

70- صالح محمد حمدان الغامدي، المرجع السابق، ص87.--- 71- ابن واصل، المصدر السابق، ج1 ص282.

72- ابن شداد، المصدر السابق، ص286.--- 73- أمينة البيطار وسهيل زكار، المرجع السابق، ص279.--- 74- نفسه، ص280.--- 75- ابن شداد، المصدر السابق، ص181.--- 76- البنداري، سنا البرق الشامي، ص72.

77- ابن الأثير، الباهر، ص170.--- 78- الكيلاني ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط3، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، 2002، ص258.--- 79- ابن شداد، المصدر السابق، ص182.--- 80- ابن الجوزي، المنتظم، ج18 ص209-210.--- 81- ابن واصل، المصدر السابق، ج1 ص282.--- 82- ابن الأثير، الباهر، ص170.

83- ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص36.--- 84- أبو شامة، المصدر السابق، ج2 ص172.--- 85- ابن الأثير، الباهر، ص170/ابن واصل، المصدر السابق، ج1 ص283.

86- ذلك الجامع الذي بناه سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي، فتأنق في بنائه وزخرفته وزينه بالرخام والفسيفساء، وكان ينوي من ذلك أن يضاهي به جامع دمشق الذي بناه أخوه الوليد بن عبد الملك . انظر ابن الشحنة، المصدر السابق، ص62.

87- ابن العديم، زبدة الحلب، ج2 ص330.--- 88- ابن الشحنة، المصدر السابق، ص63-64.--- 89- ابن الشحنة، المصدر السابق، ص71.--- 90- ابن شداد، المصدر السابق، ص386/ابن جبير، المصدر السابق، ص257.

91- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص114/ابن الشحنة، المصدر السابق، ج112.--- 92- ابن شداد، المصدر السابق، ص253.

93- عبد القادر بدران، المرجع السابق، ص79.--- 94- الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج37، ص57/وأول من درس بها برهان الدين البلخي انظر أبو الوفا القرشي، المصدر السابق، ج2 ص561.--- 95- النعيمي، المصدر السابق،ج1 ص132-133.

96- من ذوي الوجاهة في الدولة موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة، مثابر على بث الصلاة والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء، توفي في صفر 555هـ/1159م، ودفن بالمدرسة المجاهدية البرانية المنسوبة إليه .ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص627/أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص387/ابن القلانسي، المصدر السابق، ص359.--- 97- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص343- 345/أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص387/محمد كرد علي، المرجع السابق، ص87.--- 98- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص347/أبو شامة، المصدر السابق، ج1 ص388/محمد كرد علي، المرجع السابق، ص87.--- 99- النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص373.

100- وهو طومان بن ملاعب بن عبد الله الأنصاري الخزرجي النوري حسام الدين نجم الدولة الأمير الفضل صاحب الرقة، كان شجاعا جوادا، محبا للخير كثير الصدقات، مائلا إلى العلماء والفقهاء، كان السلطان يحبه ويعتمد عليه، وكان من شجعان المسلمين وأكبر أمراء نور الدين محمود، توفي مع السلطان صلاح الدين الأيوبي في النصف من شعبان سنة 585هـ/1189م. انظر النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص417.--- 101- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص404/ابن كثير، المصدر السابق، ج7 ص18.

102- نفسه، ج1 ص451.--- 103- أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني، الملقب بعلاء الدين (ت587هـ/1190م): قال عنه ابن شداد: "كان من ذوي التحصيل والتفريع والتأصيل، صنف التصانيف البديعة في أحكام الشريعة، والكتب التي سار في الآفاق ذكرها، واستوى في شياعها خَبَرها وخُبرها، انظر ابن شداد، المصدر السابق، ص269.--- 104- صالح الغامدي، المرجع السابق، ص117.

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– 1156 Depot Légal

105- الظاهر أن دور المرأة في العهد الزنكي لم يقتصر على تشييد المراكز التعليمية بل تعداه إلى التدريس وسماع ورواية الحديث، وقد ذكر الدكتور عرسان الكيلاني نماذج كثيرة لأولئك النسوة اللواتي كرّسن حياتهن للمشاركة في حركة الجهاد لاسترجاع المقدسات والدفاع عن الحرمات، ولولا ضيق حيز الدراسة لكنا أوردنا جهودهن في هذا المجال انظر ماجد عرسان الكيلاني، المرجع السابق، ص314 وما بعدها.

106- كانت زوجة الملك بوري بن طغتكين وأم ولديه شمس الملوك إسماعيل ومحمود، قرأت القرآن، وسمعت الحديث، وكانت حنفية المذهب تحب العلماء والصالحين، وقد تزوجها الأتابكي زنكي صاحب حلب سنة 532هـ، عادت إلى دمشق بعد وفاته ودخلت بغداد وسارت من هناك إلى الحجاز ومكثت بمكة سنة ثم أقامت بالمدينة النبوية حتى ماتت بها سنة 557هـ/1161م .ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص630. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص108.

107- محي الدين بن أبي الوفا القرشي، المصدر السابق، ج2 ص561/ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص630/النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص384.--- 108- هي الست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر، كانت زوجة الملك نور الدين محمود، وبعد وفاته تزوجها صلاح الدين سنة 572هـ/1176م، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وهي من أعف النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة، متمسكة بالدين، ولها أمر نافذ ومعروف وصدقات ورواتب للفقراء، توفيت في ذي القعدة 581هـ/1185م. انظر ابن كثير، المصدر السابق، ج7 ص4/أبو شامة، المصدر السابق، ج3 ص243.--- 109- النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص388.

110- ابن شداد، المصدر السابق، ص287.

111- محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص285/

Nikita Elisséeff, Nur Ad-din, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades, tome2, institut français de Damas, Damas, 1967, p430.

112- ابن الأثير، الباهر، ص169/ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص663.

113- ظهر التصوف ونشأ في صفوف الزهاد والعباد، وقد عرف المسلمون الزهد والتعبد في تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته العلمية، ثم في تعاليم الصحابة وسيرتهم وكذا من تبعهم، وكان الزهد بسيطا لا يخرج عن خلاصة التعاليم الإسلامية والأخلاق السامية التي يدعو إليها، فاندس المنحرفون في صفوف أهل الزهد والعباد، لبث ونشر انحرافاتهم لما رأوا من ميل الناس إلى الزهاد والعباد وتقديرهم ومحاولة الاقتداء بهم، خاصة بعد ابتعاد الولاة والناس عن حياة السلف الصالح بسبب الانغماس في ملذات الدنيا، لذلك اندس في صفوف الزهاد، الرافضة المنحرفون، بعد حياة حافلة بالعنف والثورات والخروج على الحكام لإقامة دولة لهم، ولما رأوا فشلهم وبطش الحكام بهم لجأوا إلى الزهد واندسوا في صفوف الزهاد لبث سمومهم ورفضهم بين العامة. للتوسع أكثر في الموضوع انظر فلاح بن إسماعيل بن أحمد، العلاقة بين التشيع والتصوف، رسالة دكتوراه في أصول الدين، المملكة العربية السعودية، 1990، ص113/كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، مصر، ط2 ، د ت.

114- علي إمام عبيد، حقيقة الفكر الشيعي وعوامل انتشاره، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، مصر، ط1، 2008، ص16.

115- هو محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله ابن جنكي دوست بن أبي عبد الله بن عبد الله بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله ابن موسى الحوزي بن عبد الله المحصن بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب الجيلي الحنبلي، ولد بجيلان، وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها كيل وكيلان والنسبة إليها جيلي وجيلاني وكيلاني، ولد سنة 471هـ/1078م، دخل بغداد صغير السن وسمع الحديث وتفقه على يد كبار العلماء، وكان أبو سعد المخرمي قد بنى مدرسة بباب الأزج وفوض إلى عبد القادر التدريس بها، فوعظ الناس فانتفعوا به انتفاعا كثيرا، وظهر له صيت في الزهد، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، كان من سادات المشايخ الكبار وهو شيخ الطريقة القادرية وإمام الحنابلة في وقته. توفي ليلة السبت 8 ربيع الثاني 561هـ/1165م. انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج18 ص173/الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20 ص439/ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ص635/ابن رجب، المصدر السابق، ص187/ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6 ص330-331/السمعاني أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، الأنساب، تحقيق محمد عوامة، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1980، ج 3 ص414.

116– علي محمد الصلابي، الدولة الزنكية، ط1، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2007، ص587. للتوسع أكثر حول إنجازات عبد القادر الجيلاني انظر سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني، الشيخ عبد القادر الجيلاني وأراؤه الاعتقادية والصوفية، ط1، مكتبة الملك فهد، الرياض، 1997، ص24/عبد الرزاق الكيلاني، الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ط1، دار القلم، بيروت، 1994، ص209–210.

117– ماجد عرسان الكيلاني، المرجع السابق، ص208، لكن المؤسف في الأمر أن جهود عبد القادر الجيلاني في القضاء على الانحرافات في العقيدة والزهد اختفت مع مرور الزمن وأخذ أتباعه في تعظيمه وتقديسه، ونسبة الكرامات له والخرافات التي لا يمكن بأي حال قبولها وتستحيل نسبتها إلى الشيخ لما عرف عنه من زهد وورع وتقوى، فانحرفوا بذلك عن نهجه وأسلوبه الأصلي. انظر كتاب الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20 ص450–451/إحسان إلهي ظهير، دراسات في التصوف، ط2، دار الإمام المجدد، مصر، 2005، ص265.

118– أحمد بن محمد بناني، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط3، 2005، ص120.